موقف أهل المغرب والأندلس من المرض والموت خلال العصر الوسيط(*)

محمد حقي

لما اخترت البحث في موضوع "موقف أهل المغرب والأندلس من المرضى والموت خلال العصر الوسيط" كنت واعيا بمصاعبه وحددت مبرراته التي بسطت القول فيها في مقدمة العمل، إلا أن كل من أعرفهم وأشاركهم هم البحث تخوفوا من هذا الاختيار وحذروني من صعوبته، بل إن بعضهم ذهب إلى حد تحذيري من عدم القدرة على إنجازه، ولم يخرج عن القاعدة إلا قلة قليلة تصدرها أستاذي الجليل الدكتور محمد حمام، لكن معرفتي بالموضوع وبتوجهات الدراسة المخصصة له وتكويني المنهجي المتواضع واطلاعي على ما تحتويه المصادر جعل قناعتي قوية ودفعني إلى التمسك بالموضوع والإصرار على إنهائه والوصول به إلى الصورة التي أضعها اليوم بل ومنذ شهور بين أيديكم لتقولوا رأيكم فيها.

إن الحديث عن الموقف يلقي بنا في بحر فرع واسع من التاريخ يحمل خصوصيات مميزة من خلال اهتمامه بالتصورات والأحاسيس الجماعية للجماعات أو بالأحرى بالوقوف عند التمثلات والصور والأساطير والقيم، وهذا الاهتمام يعطي لمختلف العناصر المكونة له ميزة خاصة:

- الإنسان: الجماعة المتجانسة أو شبه المتجانسة/ الجغرافيا.

* – نوقشت هذه الأطروحة برحاب كلية الآداب بالرباط بتاريخ 2001/11/08 وحصل الباحث على دكتوراه الدولة في التاريخ بميزة حسن جدا مع توصية بالطبع. وكانت لجنة المناقشة تتكون من الأساتذة الأفاضل: د. إبراهيم حركات (رئيسا)، ود. محمد حمام (مشرفا ومقررا)، ود. حسن الفكيكي ود. محمد يعلى (عضوين).

- الزمان: مدة طويلة واستمرارية.
- علاقة الظواهر بالإنسان: سلطة وضغط.
- المصادر: تنوع وصمت.

واستحضار هذه العناصر يجعلنا نقف أمام خصوصيات الظاهرة الاجتماعية عند دوركايم أو القانون بصفة عامة.

لقد كانت الإشكالية المحورية بناء على ما سلف ذكره: ما هو موقف أهل المغرب والأندلس من المرض والموت؟ واقتضى حلها التعامل مع العناصر التي أشرنا إليها أعلاه وفق منهج خاص ومسلك واضح يصعب الخروج عنه أثناء العمل. فإذا بدأنا بالزمان فهو زمان طويل (المدة الطويلة عند بروديل) لأنه وحده يسمح بتبلور الظواهر والمواقف واختبار استمرارها، لهذا اخترنا فترة العصر الوسيط (704م/85هـ-1492م/997هـ) وهو ما يعادل تقريبا ثمانية قرون؛ فكلما تطرقنا لنقطة أو قضية ما تجدنا ملزمين بتتبعها زمانيا وإيراد أمثلة متعددة بقصد تأكيد حضورها الدائم وبالتالي إظهار التغيرات التي عرفتها. ونفس الإجراء لجأنا إليه عند تعاملنا مع الجماعة البشرية/المجال المكاني إذ كان الحرص على تتبع مدى حضور القضية جغرافيا بشكل سانكروني تزامني عن طريق إيراد شواهد من مدن ومناطق متعددة من العدوتين، وكذلك تواتري دياكروني حتى إن من لم ينتبه إلى خاصية الموضوع ليشعر بالملل والاشمئزاز.ونصل في مستوى ثالث إلى مسألة المصادر وهو الجانب الأخطر في الموضوع. فقد دأب الدارسون والمتخصصون في هذا الفرع (مثل: فليب أريي - ميشيل فوفيل) على نعته بتاريخ الصمت لأنه - وبكل بساطة - لا نجد إشارات واضحة للمواقف، بل فقط بعض مظاهرها التي على الباحث أن يجمعها ويؤلف الصورة التي يمكن استنتاجها. وهذا الوضع يفرض على الباحث أن يضع تصورا أوليا متكاملا منذ بداية العمل حتى يتمكن من توظيف كل ما يجده في مصادره وأن يطلع على أكبر قدر من مصادر ومخلفات المرحلة مما يمكن توظيفه. ولو سمحت لنفسي بأن أرتب المصادر التي اعتمدتها حسب غناها - كما ورد في مقدمة العمل - لاتضح أن المصادر الغير المباشرة للتاريخ ستصبح الأساس، في

حين لا تحتل مصادر التاريخ المباشرة إلا مكانة هامشية جدا. وحتى المادة التي تمنحها كل هذه المصادر تبقى مجرد شذرات وإشارات عابرة وقصيرة على الباحث أن يبذل جهدا كبيرا لتوظيفها. ولو حاولنا مقارنتها بما يتوفر للباحث الأوربي لظهر لنا البعد الكبير والبون الشديد بين ما نملكه وما يملكونه وبالتالي ما يتوصلون إليه من نتائج وما نحققه مهما وصل مستوى تكويننا المنهجي (كتابات المطهر retables – النذور ex-voto – مذكرات المحتضرين – وصايا تحفظها الكنيسة – الصور – سجلات المصحات والمستشفيات). ويتعلق المستوى الرابع بالقضايا التي تخص الموضوع، وهنا أقول إن كل فصل يحتوي واحدة بل إن الفصل الواحد يحتضن قضايا عديدة. وتتبع العمل يبرز ذلك بوضوح.

إن الخوض في هذا الموضوع قد تطلب إخراج كل الأسلحة وتوظيفها في أقصى حدودها والتعامل بتقنيات متعددة بدءا بمسألة تحديد المفاهيم واعتماد التكميم من خلال سلسلة الجداول والمبيانات والتوضيح باستعمال الصور الفوتوغرافية المأخوذة من مآثر تعود إلى فترة الدراسة (شالة الإسلامية) والتوطين بواسطة الخرائط ثم التتبع الدقيق للقضايا زمنيا ورصد أهم التغيرات التي تعرفها. وهذه الوسائل وغيرها ساهمت في إنجاز القصد وبلوغ المأرب.

وإذا وصلنا إلى النتائج، فلن أتحدث عن كل ما حقق وتحقق، بل سأشير إلى بعض النتائج الطريفة والعميقة في نفس الآن. وأول ما يلفت الانتباه هو أن هذا الموضوع نجح في إظهار تطورات فكرية وعلمية وحضارية وحتى سياسية عرفها المجتمع المغربي – الأندلسي. وثانيا كشفه عن وجود مرحلة حاسمة في تطور تاريخ العدوتين ونقصد بها نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حيث الفرق واضح بين ما سبق هذا التاريخ وما جاء بعده ولعل هذا الأمر سيساعد في وضع أسس تحقيب خاص بالمغرب والأندلس. وثالثا إمكانية تتبع تطور أي ظاهرة ويمكن أن نشير إلى بعضها (أماكن العلاج – مقابر – تجهيز – مظهر الموت الرئيسي...)

ورابعا، إبراز معالم الصراع الثقافي خاصة بين الفقهاء والمتصوفة. وخامسا تحول المغرب إلى مبدع في الميدان خاصة في نهاية العصر الوسيط وتـأثر الأندلس به وكذلك كون الحكام سباقين إلى التجديد في الميدان ... هذا غيض من فيض وقليل من كثير. ولا يمكن أن نعتبر هذه النتائج وغيرها مما جـاء به البحث إلا بداية للكشف عن خفايا هذا الموضوع والمواضيع التـي مـن جنسه، والأكيد أن أبحاثا ستنجز حول كل فصل من فصوله إذا لم تكن كـل نقطة من نقطه. وأعلن منذ اللحظة أنني سأستمر فـي البحـث فـي هـذا الموضوع وأنتظر أن يشاركني الكثيرون فيه مستقبلا ليأخذ حقه من العنايـة والاهتمام.